رأي القدس

اكتئاب اسرائيلي غير مسبوق

■ لا نعرف ما هي المعايير التي استند اليها الرئيس الامريكي جورج بوش عندما قال يوم امس ان الحرب الاخيرة في لبنان انتهت بهزيمة «حزب الله» ولكن ما نعرفه ان الوقائع على الارض، ارض المعارك في الجنوب، تقول عكس ذلك تماماً.

الانتصار مسألة نسبية، فكون «حزب الله» لم يهزم ولم يستسلم، وافشل مشروع الاحتلال الاسرائيلي لشريط امني جديد، واحتفظ بالجنديين الاسرائيليين الاسيرين، هو في حد ذاته انتصار كبير لحركة مقاومة شعبية لا تملك الطائرات، ولا الجيوش الجرارة، وانما حفنة من المقاومين المؤمنين الذين اقصى ما يتطلعون اليه هو الشهادة، والانتقال الى الرفيق الاعلى حيث دار البقاء، وبأسرع وقت ممكن، وهذه معايير وقيم لا يعرفها، بل لا يفهمها، الرئيس بوش وحليفه توني بلير رئيس وزراء بريطانيا.

استخدام الطائرات الحربية الحديثة، الامريكية الصنع، لتدمير بنى تحتية لبنانية، ليس عملاً اخلاقياً، ولا يمكن ان يحقق نصراً، لان الطرف الآخر لا يملك ما يمكن ان يتصدى به لمثل هذه الاسلحة الحديثة المتقدمة، ولكن عندما تبدأ المعارك على الارض، ويكون هناك مجال للمنازلة، واظهار اوجه الشجاعة والبطولة، فإن الامر يكون مختلفاً، حتى لو تفاوت الفارق في القوى والاسلحة بين الطرفين المتواجهين.

ففي اليوم الاول لبدء العدوان على لبنان اعلن السيد حسن نصر الله زعيم المقاومة الاسلامية في لبنان، انه لا يملك اي حيلة تجاه القصف الجوي، لانعدام الامكانات الى درجة الصفر، ولكنه وعد بان المعارك على الارض ستكون مختلفة، وستتحول ارض الجنوب الى مقبرة للاسرائيليين وقواتهم، وقد صدق وعده، فمن شاهد حطام الدبابات الاسرائيلية من نوع «ميركافا» التي تعتبر الافضل بين مثيلاتها في العالم بأسره، يعرف من انتصر ومن انهزم.

اسرائيل تعيش هذه الايام مأزقاً كبيراً، وكذلك الولايات المتحدة وبريطانيا، والانظمة العربية التي راهنت على الانتصار الاسرائيلي السريع في لبنان، ابرز مفرداته عودة الثقة الى «ثقافة المقاومة» وتراجع نظرية اعتماد المفاوضات كطريق وحيد للوصول الى التسوية مع الدولة العبرية.

انتصار «حزب الله» اعاد الامل الى قيم الصمود والرفض والمقاومة، الصمود في وجه العدوان الاسرائيلي، والرفض للانظمة العربية المتخاذلة المستسلمة، والمقاومة لمشاريع الهيمنة الامريكية الاسرائيلية التي تحاول فرض سيطرتها على المنطقة العربية.

انتصار «حزب الله» اصاب الاسرائيليين بحال من «الاكتئاب المزمن» لان هؤلاء لم يتعودوا مطلقاً على الهزيمة، وبنوا كل حساباتهم على انتصارات سريعة على انظمة عربية «صوتية» تنهار مع اول ضربات جوية، ويترك جنودها سيقانهم للريح بعد التخلص من اسلحتهم وملابسهم العسكرية، ايثارا للسلامة.

الاكتئاب الاسرائيلي مكلف جداً، لانه ربما يترجم الى فقدان الثقة بالمشروع الصهيوني الذي كان الدعامة الاساسية لقيام دولة اسرائيل. وفقدان الثقة يعني الهروب الجماعي، والبحث عن مناطق اكثر اماناً، خاصة ان الاسباب التي ادت الى هجرة اليهود الى ارض الميعاد قد زالت، ولم يعد اليهودي يعامل كمواطن درجة ثانية يواجه بالكراهية والحقد العنصري في العالم الغربي.

ولابد ان المؤسستين، العسكرية والسياسية، في الدولة العبرية تدركان هذه الحقائق جيداً، وعندما قال شمعون بيريز نائب رئيس الوزراء، ان الحرب الحالية في لبنان هي حرب وجود، كان صادقاً، لانه وهو الثعلب العجوز، وآخر ما تبقى من جيل الرواد الصهاينة، يعرف جيداً معنى الهزيمة على ايدي حركة مقاومة. او بالاحرى عدم الانتصار في لبنان، مثلما كان حال جميع حروب اسرائيل السابقة.

مرة اخرى نقول ان الحذر واجب، والجيش الاسرائيلي بات مثل النمر الجريح، وكذلك قيادته السياسية، ولن يقبل هؤلاء بالهزيمة بسهولة، وسيحاولون احياء تحالفات قديمة في لبنان، واقامة تحالفات جديدة مع انظمة عربية تشاركهم الهزيمة، ولذلك لابد من الاستعداد لكل الاحتمالات، وبشكل جيد ومتقن، تماماً على الدرجة نفسها من الاستعداد الذي الحق باسرائيل وجيشها الهزيمة الاكبر في تاريخها القصير.

أيٌّ خيار بين: دولة نؤسسها أو أخرى تنسجها المقاومة من حولها اضطراراً؟

د. عصام نعمان *

■ الغالب يرث كل شيء. المقاومة غلبت أمريكا بأن أحبطت أغراض حرب إسرائيل على لبنان. من حقها، إذاً، أن ترث «موجودات» أمريكا في لبنان، وأن تعيد تنظيمها وتوظيفها في خدمة البلد. المفارقة ان أصدقاء أمريكا في لبنان لا يعترفون بأن أمريكا وإسرائيل غُلبتا وان المنتصر الإستراتيجي هو المقاومة. لذلك تراهم يسارعون، والحرب ما زالت قائمة، إلى مطالبة المقاومة بان تسلّم سلاحها إلى الدولة بلا قيد أو شرط سنداً لقرار مجلس الأمن 1701.

أية دولة هي هذه الدولة التي يريد أصدقاء أمريكا وحلفاؤها انّ تسلمها المقاومة سلاحها؟ انها «دولة» قوى 14 آذار. الدولة العاجزة التي تنصلّت من المقاومة ومن عملية 12 تموز/ يوليو. الدولة التي لم تتصدّ لحرب أمريكا وإسرائيل على لبنان بل لجأت إلى جورج بوش وكوندوليزا رايس لإقناع إسرائيل بتخفيف وطأة حربها على بنى لبنان التحتية، وما تجرّات على مجرد التبرم من إصرار بوش، سحابة شهر كامل، على منع مجلس الأمن من إصدار قرار بوقف إطلاق النار.

لم يكن اللبنانيون، لاسيما الإصلاحيين بينهم، بحاجة إلى حرب تدميرية شاملة تشنها إسرائيل عليهم ليقتنعوا بأن لا دولة لديهم ولا من يحزنون. ما عايشوه على مضض بل عانوا منه على الدوام لم يكن دولة بل مجرد نظام أو آلية لتقاسم السلطة والنفوذ والأسلاب بين متزعمي الطوائف، ورجال المال والأعمال، وقادة الأجهزة الأمنية والمخابرات في الداخل والخارج. القائمون على هذا النظام ومشغلّو هذه الآلية ما اقرّوا يوما بوجود خطر يشع من إسرائيل. لو فعلوا لكان توجّب عليهم أن يقيموا دولةً قادرة، ويبنوا جيشاً مقاتلاً، ويربّوا النشء تربيةً وطنية قوامها المواطنة الصحيحة، والذود عن الوطن، وتقديم الولاء له ولدولة القانون والحق على أي ولاء طائفي أو مذهبي أو فئوي.

لأن تأسيس دولة المواطنين، وبناء جيش وطني، وإشاعة تربية وطنية تعيق جميعها مشروع الطبقة السياسية الفاسدة التي ورثت عن سلطة الإنتداب «دولة» عاجزة، فقد أحبطت هذه الطبقة بالقمع والعنف تارةً، وبالتواطؤ مع قوى أجنبية تارةً أخرى كل مساعي الإصلاح الجاد والتنمية السياسية والاقتصادية والاجتماعية الصحيحة.

إن حضور المقاومة وصعودها إن هو إلا نتيجة حتمية لغياب الدولة. لو كانت الدولة حاضرة خلال غزو إسرائيل للبنان العام 1978 وإحتلال رقعة من أرضه، وغزوه العام 1982 وإحتلال نحو نصف مساحته بين حدوده الجنوبية وطريق بيروت ـ دمشق، والعودة إلى غزوه العام 1996 لتوسيع رقعة الإحتلال.. لو كانت الدولة حاضرة لما أمكن للمقاومة ان تصبح حاجة ومطلباً ومشروعاً وطنياً للتحرير.

كان الأمر ليهون لو ان «دولة» الطبقة السياسية الفاسدة سلّمت إضطراراً بحضور المقاومة وصعودها، واعترفت لها بمكرمة التحرير في 25 أيار (مايو) 2000. لكنها تظاهرت بأنها سعيدة بعودة بعض الأرض إلى سيادتها وتغاضت عن استمرار إسرائيل بإحتلال بعضها الآخر، وأخذت تنادي بأن منطقة شبعا المحتلة صغيرة ولا تستأهل مقاومة متجددة لتحريرها، وان السياسة والدبلوماسية كفيلتان بإستخلاصها من براثن إسرائيل، خصوصا إذا ما أحسنّا التعاون مع أمريكا في هذا المجال وفي غيره من المجالات!

في سياق هذا المنطق الهروبي والمعادي لقيام دولة قادرة وعادلة تعاونت فرنسا والولايات المتحدة في طبخ القرار 1559 بقصد إزاحة الوجود السوري لكشف ظهر المقاومة وتعطيل خط إمدادها اللوجستي. وعندما اخفق الثالوث اللبناني الرسمي ـ الفرنسي ـ الأمريكي في تنفيذ القرار 1559 جرى إغتيال رفيق الحريري أو، على الأقل، جرى إستغلال إغتياله لتوليد تسونامي شعبية هائلة جرفت الوجود السوري في مدى شهرين، وأشاعت مناخا نفسيا وسياسيا معاديا للمقاومة بطريق إظهارها بأنها حليفة سورية إن لم تكن أداتها.

رغم كل محاولات التشكيك والتجريح والتجييش والتعبئة، حافظت المقاومة على حدٍّ عالٍ من الإلتفاف الشعبي حولها، وبدت عصيّة على أية محاولة محلية لتجريدها من السلاح. في هذا الإطار قامت الولايات المتحدة بالإيعاز الى إسرائيل بإستغلال عملية أسر جنديها في 12/7 لتنفيذ مخطط حرب على لبنان معدّ سلفاً كما جزمت بذلك صحيفة «سان فرانسيسكو كرونيكل» الأمريكية، وكذلك المؤلف والصحافي الفرنسي تيري ميسان في صحيفة «نيويورك تايمز»، والكاتب المحقق الأشهر سايمور هيرش في صحيفة «نيويوركر». في المقابل، كانت المقاومة قد أعدّت من خلال الحرب مفاجأة لنفسها ولإسرائيل اذ إستبسل مجاهدوها الشجعان في التصدي لجنود ومدرعات «الجيش الذي لا يقهر»، رادمين بشجاعتهم وتدريبهم فجوة التكنولوجيا بين المقاومة والعدو الإسرائيلي، ثم أحسنوا إستعمال نموذج متطور من القاذفات المضادة للدروع فكان ان فتكوا بعشرات الدبابات الإسرائيلية المتطورة من طراز ميركافا ـ الجيل الرابع، وبعدها فاجأوا العدو بنحو أربعة آلاف صاروخ دك اقصرها مدى جميع المستوطنات القريبة من الحدود، ووصل أوسطها مدى الى مدينة حيفا، وطاول أبعدها مدى مدينة الخضيرة غير البعيدة عن تل أبيب، وقيل ان ثمة ما هو أبعد مدى من الصاروخ الأخير، يصل مداه الى 200 كيلومتر. كما دمروا بارجتين وزورقا حربيا بصواريخ متطورة أطلقوها من مواقع متحركة على الشاطىء.

المهم ان المقاومة أحبطت حرب إسرائيل على لبنان بجدارة وبسالة في نحو 33 يوما، فحققت نصراً إستراتيجيا كما أكد قائدها العام السيد حسن نصرالله. مع ذلك إنبرى بعض قوى 14 آذار، بلا حياء، قبل 12 ساعة من حلول موعد تنفيذ قرار وقف العمليات الحربية الى مطالبة حزب الله بتسليم أسلحته الى الجيش اللبناني سنداً للقرار 1701! لم تكن الإشتباكات آنذاك قد توقفت، ولم تكن الدول المعنية قد حسمت موقفها من المشاركة في القوة الدولية المراد نشرها لتعزيز وحدات الجيش اللبناني، بل بالكاد كان رئيس حكومة العدو قد أعلن موافقته على قرار وقف العمليات الحربية. حتى عندما أعلن موافقته المنتظرة لم ينسَ ان يقول كلمته في ما يخطط لعمله في الحاضر والمستقبل: «ليس هناك من تسامح مع هؤلاء الأشخاص. سوف نستمر بملاحقتهم في كل مكان وزمان. انه واجب أخلاقي علينا، وليست لدينا أي نية لنعفي أنفسنا من هذا الواجب أو ان نطلب إذنا من احد».

الحرب مستمرة، إذاً، ضد حزب الله، قيادةً وكوادر ومجاهدين. القرار 1701 لن يوقف الحرب نهائيا. في قابل الأيام ستفعل إسرائيل بقادة المقاومة اللبنانية كما فعلته وتفعله بقادة المقاومة الفلسطينية: تغتالهم بواسطة الصواريخ او بالسيارات المفخخة. من يردع إسرائيل؟ الولايات المتحدة؟ ها هو ذا جورج بوش يحمّل، في مؤتمر صحافي، حزب الله وسورية وإيران مسؤولية الحرب، ويؤكد «أن حرب إسرائيل على الحزب مماثلة للحرب التي تقودها الولايات المتحدة على الإرهاب العالمي». الحرب، إذاً، ستكون استباقية ومتواصلة وضارية، فما جدوى القرار 1701؟

يتحصل من مجمل ما تقدم ان لا دولة في لبنان، وان غياب الدولة أدى الى ظهور المقاومة وتصعيدها، وان غياب الدولة يحول دون تسليم سلاح حزب الله الى جهة لا وجود لها ولا هيبة، وان الحرب على المقاومة وعلى لبنان مستمرة بدلالة ما توعّد به إيهود اولمرت المقاومة، وما سانده في شأنه جورج بوش، وأن ليس من الممكن والمعقول ان يحلّ حزب الله نفسه لينجو من ثارات اولمرت وبوش او ليلبي رغبات خرقاء لقوى 14 آذار، وأن الحل الصحيح، وطنيا وسياسيا واستراتيجيا، هو قرار تاريخي بإعتماد خيار من اثنين: دولة نؤسسها ونبنيها جميعاً إختياراً، أو دولة تنسجها المقاومة من حولها إضطراراً.

الدولة الديمقراطية القادرة والعادلة، دولة القانون والحق والمؤسسات والتنمية المستدامة كانت مطلوبة قبل قيام إسرائيل وبعدها، وقبل حروبها الست علينا وبعدها، وقبل ما يتوعدنا به بوش واولمرت من حروب إستباقية ضد الإرهاب وبعدها. الدولة حاجة وطنية وإجتماعية وإقتصادية ودفاعية وحضارية لا سبيل الى تجاهلها او ابتذالها او تأجيلها. اذا كانت الدولة على هذا المستوى الاستراتيجي العالي من الضرورة والإلحاح والاستحقاق، فلماذا لا نتخذ في شأنها قراراً تاريخيا طال إنتظاره واستحقاقه؟ وهل ثمة ظرف اخطر وأدعى إلى الإقتبال والإغتنام من الظرف الحالي؟

بين الخيارين اللذين تطرحهما الحرب علينا نفضل، بطبيعة الحال، خيار ان نهبّ مجتمعيا الى تأسيس الدولة الديمقراطية القادرة والعادلة وبنائها من خلال المؤسسات الدستورية التي نقيمها بالإنتخاب ونعززها بالإتفاق ونرتقي بها بالإنماء المتوازن والمستدام. ذلك كله يتحقق بتأليف حكومة إتحاد وطني، مناصفةً بين القوى التقليدية والقوى الحية، من اجل البدء بأولى خطوات التأسيس وهي وضع مشروع قانون عادل للإنتخاب على أساس التمثيل النسبي يصدر بمرسوم اشتراعي، ويجري بموجبه تنفيذ مضمون المادة 22 من الدستور التي تقضي بإنتخاب مجلس نواب على أساس وطني لا طائفي، على أن يُستحدث بالتزامن معه مجلس شيوخ تتمثل فيه جميع العائلات الروحية (الطوائف) وتنحصر صلاحياته في القضايا المصيرية والأساسية. بهذا النهج الديمقراطي الحر والعادل نضمن ان تكون لمجلس النواب، كما لمجلس الشيوخ، صفة الجمعية التأسيسية وفعاليتها التجديدية.

إذا أخفقت القوى التقليدية والقوى الحيّة في إعتماد هذا الخيار، فإن المقاومة التي تحمّلت مع جماهيرها والقوى الحية المساندة لها والمشاركة في مجهودها وجهادها الآلام والخسائر والأضرار ستجد نفسها مضطرةً، لجميع العوامل والأسباب والتحديات المار ذكرها وفي مقدمها حق الدفاع عن النفس وعن الشعب، الى النهوض لواجب تأسيس الدولة ونسجها من حولها وفاءً لضرورات إنسانية وإجتماعية وإستراتيجية وحضارية.

يثور سؤال: كيف تحقق المقاومة والقوى الحية المتحالفة معها هذا المطلب التاريخي؟

الجواب: بإقامة حكومة اتحاد وطني من جميع القوى التي لها مصلحة في هذه اللحظة التاريخية بتأسيس الدولة الديمقراطية القادرة والعادلة وبنائها وذلك بطريق العمل الشعبي والتظاهرات والمسيرات والعصيان المدني، اذا اقتضت الحاجة، من اجل حمل الطبقة السياسية التقليدية على التنازل عن امتيازاتها والتعاون مع الكتلة الشعبية الأكثر حضوراً وتمثيلاً للإجتماع السياسي اللبناني، وبالتالي المشاركة وفق حجمها الطبيعي في حكومة الإتحاد الوطني المرتجاة.

إن الزخم الشعبي المتولدّ عن النصر الإستراتيجي الذي حققته المقاومة ضد العدو الإسرائيلي يشجع ويشرّع الإقدام على هذه الخطوة التاريخية بغية وضع لبنان، مرةً والى الأبد، على سكة التطور والتقدم والإبداع. ولا سبيل الى التخوّف من إحتمال انزلاق البلد الى حرب أهلية تعوّض بها إسرائيل إخفاقها في حربها على لبنان لأن أهالي لبنان كفروا بالإحتراب لحساب الآخرين، وكفروا بأكاذيب الطبقة السياسية التقليدية وفسادها، وأدركوا الآن أن لا قضية لهم ولا مصلحة في حرب أهلية إذ سيزدادون فقراً وبؤساً وعبودية، وأيقنوا ان الظروف المحلية والإقليمية لا تسمح لتجار الطائفية والحروب بأن يلعبوا لعبتهم من دون ان يدفعوا أثماناً باهظة. دقت ساعة الحقيقة.

* كاتب وسياسي من لبنان

لنرفع رؤوسنا بالنصر الذي صنعته دماء الشهداء

د. سعيد الشهابي *

■ وصفه القائد المظفر بـ«النصر الاستراتيجي التاريخي»، وعبرت الجماهير العربية عنه بابتهاج لم يسبق له مثيل قط منذ الاحتلال الصهيوني لفلسطين قبل ستين عاما، وتلعثم الرئيس الامريكي في كلماته وهو يتحدث عنه محاولا تبرير أكبر فشل للسياسة الخارجية الامريكية في تاريخها المعاصر، واعترف رئيس وزراء العدو، وهو يشعر بثقله على نفوس الصهاينة وحلفائهم، بان هناك ثغرات في الاستراتيجية العسكرية لجيش الاحتلال. «اسرائيل» أرغمت على القبول بوقف اطلاق النار بعد أطول حرب في تاريخها، ليس بالضغوط الخارجية، بل بعد ان بدأت معنويات جيشها بالانهيار التدريجي، وخشيت ان تمنى بهزيمة أخطر من الهزيمة التي تكبدتها. الخسارة الاسرائيلية لم تكن عسكرية فحسب، بل سياسية واعلامية ونفسية وعلى صعيد العلاقات العامة. شمعون بيريز قال عشية وقف اطلاق النار: «اننا لو لم نوافق على القرار 1701 لانقلب العالم ضدنا». كان العالم ضد الحرب الصهيونية منذ يومها الاول، ولم يقف معها سوى جهات قليلة في مقدمتها الحكومة الامريكية التي رفضت اية مطالبة بوقف اطلاق النار، معتقدة ان قوات الاحتلال الصهيونية قادرة على القضاء على حزب الله، الذي أرغم أنفها منذ الايام الاولى لتشكيله. ذاكرة الرئيس بوش ما تزال تختزن حقائق مرة عما جرى للقوات الامريكية في بيروت، عندما دشنت المقاومة الاسلامية اولى عملياتها الناجحة في تشرين الاول (اكتوبر) 1984 بتدمير مقر قوات المارينز وقتل اكثر من 250 من افراده في عملية استشهادية فريدة من نوعها، وأكثر من 60 من القوات الفرنسية في هجوم متزامن. الذاكرة الامريكية ما تزال على صلة بما جرى في الماضي القريب عندما هرولت قوات المارينز للهروب السريع من بيروت وقامت بتدمير لبنان من بعد، مرتكبة واحدة من ابشع الجرائم الحربية، بالقاء الحمم التي تزن القنبلة الواحدة منها طنا من المتفجرات، تطلقها مدافع «نيوجيرسي» الراسية في المياه الاقليمية اللبنانية بعيدة عن سلاح المقاومة. اما هذه المرة فكانت تعتقد ان تدمير لبنان بطائرات «اف 16» سوف يحقق امرين: اولهما ارهاب ابناء لبنان ودفعهم للثورة ضد المقاومة، وثانيهما تدمير المنشآت والمعدات التابعة لحزب الله بدون تكبد خسائر تذكر. حوادث الايام الـ 34 اثبتت خطأ تلك الاستراتيجية والتوقعات الامريكية والاسرائيلية. واصبح على القادة الامريكيين والصهاينة الآن ان يبرروا للعالم جدوى ذلك العدوان العبثي، برغم اعتراض كافة دول العالم.

كانت قلوب العرب والمسلمين تخفق وهي ترى واحدا من اكبر جيوش العالم، وأكثرها خبرة في التدمير عن بعد، واستهداف اعدائه بالصواريخ التي تحولهم الى اشلاء، مصابا بجنون العظمة والكبرياء والغرور، فكيف يمكن لمجموعة صغيرة من المقاومين الصمود امام ذلك المارد الخطير؟ وبينما كانت الشعوب تنتظر الدعم الالهي لتلك المجموعة، كانت حكومات بعض الدول المجاورة المهزومة نفسيا، تستجيب لطلب الرئيس الامريكي بشجب المقاومة الاسلامية، وتلقي اللوم على حزب الله. فاذا بزعماء مصر والسعودية والاردن والبحرين يعلنون بكل وقاحة وصلف وقوفهم مع العدو الصهيوني ضد المقاومة، ويلومونها بالعبث والمغامرة. لقد كان موقفا تاريخيا مشينا دفع الشعوب العربية والاسلامية وعلماء الدين في الشرق والغرب لشجبه، ولو كانت تلك الحكومات في بلدان ديمقراطية لاستقالت من مناصبها لان موقفها كان خيانة وطنية وقومية. تلك الحكومات لم تشأ ان يتحقق النصر للمقاومة، لان ذلك النصر يكشف عوراتها وضعفها وتسلطها على شعوبها بسياسات القهر والاستبداد. ان هناك اليوم استحقاقات على هذه الحكومات ان تواجهها امام شعوبها المقهورة المحكومة بالنار والحديد. الحرب لم يبدأها حزب الله، فما فعله كان عملا محدودا ومحسوبا. فاختطاف جنديين اسرائيليين لمبادلتهما بأكثر من عشرة آلاف أسير فلسطيني ولبناني لا يمكن تصنيفه بأي حال من الاحوال بانه اعلان حرب ضد الكيان الصهيوني. فقوات العدو لم تتوقف يوما عن استهداف القادة والرموز الفلسطينيين واللبنانيين، مستخدمة أكثر الاسلحة الصاروخية تطورا. ألم تحول جسد الشيخ أحمد ياسين، ذلك الرجل المعوق الذي أنهكته سنوات السجن في زنزانات التعذيب الاسرائيلية، الى أشلاء بصاروخ اسرائيلي، وهو خارج من المسجد بعد أداء صلاة الفجر؟ ألم يستشهد الدكتور عبد العزيز الرنتيسي وآخرون بالاسلوب نفسه؟ وها هو رئيس وزراء العدو يعلنها للعالم مجددا، بعد ارغامه على الموافقة على وقف اطلاق النار، بانه سوف يستهدف رموز حزب الله قريبا، بعد ان هزمت قواته على ايدي مجاهدي المقاومة الاسلامية. انه تحد صريح لروح القرار الدولي، واعلان مبكر لحرب قادمة، ومواصلة لسياسات الارهاب التي انتهجها الاحتلال في فلسطين ولبنان.

لم يعلن حزب الله الحرب بخطف الجنديين، فعمليات الخطف والاغتيال من الجانب الاسرائيلي لم تتوقف ابدا، ألم تختطف اجهزة استخباراتها «أدولف آيخمان» في 1960 بتهمة مشاركته في تصفية اليهود في المانيا، ثم تعدمه بعد عامين؟ ألم تختطف «مردخاي فعنونو»، عالم الذرة الذي كشف في 1986 اسرار مشروعها النووي للصحافة البريطانية، من روما وتسجنه 18 عاما قبل ان تطلق سراحه في 2004؟ ألم تمارس عمليات الاغتيال والخطف ضد الرموز الفلسطينية في السبعينات عندما تعقبت العناصر الفلسطينية القيادية في لبنان واوروبا بعد عملية ميونيخ التي قتل فيها الفريق الاسرائيلي المشارك في الدورة الاولمبية في تلك المدينة الالمانية. وتواصلت عمليات التصفية الجسدية حتى بلغت ذروتها في السنوات الخمس الاخيرة. وفي 2001 ارتكبت «اسرائيل» اكثر من 60 جريمة اغتيال ضد الفلسطينيين. وكان من أبرز تلك العمليات اغتيال الامين العام للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، ابو علي مصطفى في 27 آب (اغسطس) 2001.

لقد تألق قائد حزب الله، سماحة السيد حسن نصر الله وهو يعلن انتصار الأمة المستضعفة على العدو الصهيوني قائلا: «نحن أمام نصر استراتيجي وتاريخي للبنان والمقاومة وكل الامة بدون أي مبالغة»، مضيفا «أن حزب الله خرج من المعركة مرفوع الرأس وأن اسرائيل كانت الطرف المهزوم». فالحرب أعلنتها «اسرائيل» بدعم، وربما تحريض امريكي. وكان المسؤولون الامريكيون في الايام الاولى للعدوان أكثر حماسا لها من الصهاينة، وبدت كوندوليزا رايس أكثر غطرسة واستعلاء وتحديا للرأي العام العالمي من أي وقت مضى، ولم يخف قادة البيت الابيض حماسهم للعدوان، بل كانوا يمارسون حربا نفسية ضد المقاومة والعالم وهم يتبجحون بارسال القنابل القادرة على اختراق الملاجىء. اما الحكومة البريطانية فلم تكن أقل حماسا من الامريكيين والصهاينة في دعم العدوان، وفتحت مطاراتها للطائرات الامريكية التي كانت تحمل القنابل والصواريخ من اجل العدوان. واذا كان الاسرائيليون متهمين ببدء العدوان وارتكاب جرائم حرب ضد المدنيين خصوصا بارتكاب المجازر في قانا وصيدا والضاحية الغربية ببيروت، فان الامريكيين والبريطانيين ساهموا بشكل مباشر في اطالة أمد العدوان وتضاعف الضحايا المدنيين، ومعهم حكومات مصر والسعودية والاردن والبحرين. برغم ذلك التحالف الشيطاني، انتصرت ارادة المستضعفين والمظلومين، فاذا بالمحتلين يشعرون للمرة الاولى منذ الاحتلال قبل ستين عاما بانهم امام مقاومة باسلة لا تشبه في شيء الحكومات العربية الخائرة التي تتسابق لارضاء الصهاينة وداعميهم. واستطاع ذلك التحالف الشيطاني استصدار فتاوى دينية، ليس من الكنيسة التي كان لها موقف مشرف، بل من بعض وعاظ السلاطين، خصوصا في السعودية، الذين أصدروا الفتاوى ضد المقاومة، وحرموا دعمها او التعاطف معها. وحتى شيخ الازهر، محمد طنطاوي، أصدر في البداية فتوى مشابهة، كان لها رد فعل سلبي أدى الى خروج طلبة الازهر في تظاهرات ضدها.

برغم ذلك كله، انتصرت ارادة المقاومة الاسلامية التي جسدت ارادة الشعوب العربية والاسلامية الرافضة للاحتلال وللتحالف الشيطاني بين «اسرائيل» وامريكا وبريطانيا وبعض الحكومات العربية، وخرج المقاومون مرفوعي الجباه، شامخين بهاماتهم، بعد ان أذاقوا العدو مرارة الهزيمة. فبعد رفض واشنطن ولندن وتل أبيب مبدأ وقف اطلاق النار، سارع هذا الثلاثي الى البحث عن صيغة لحفظ ماء الوجه بعد ان لوحظ بشكل واضح تداعي معنويات جيش الاحتلال. اتضح هذا التداعي بعد ثلاثة اسابيع من شن العدوان، من خلال عدد من المؤشرات: اولها الرد الفوري من قبل المقاومة على ادعاءات ايهود اولمرت، رئيس وزراء الكيان الاسرائيلي، المتكررة بان قواته قضت على صواريخ حزب الله ودمرت امكاناته، ثانيها: تصاعد التذمر في اوساط المستوطنين ليس في المناطق القريبة من الحدود مع لبنان، بل في حيفا وعكا وأبعد من ذلك، للمرة الاولى منذ قيام نظام الاحتلال، ثالثا، التصاعد الخطير في اعداد قتلى الجنود الصهاينة، خصوصا في الاسبوعين الاخيرين، وهو امر لم يحدث من قبل. وكما يقول سماحة السيد حسن نصر الله، فان «اسرائيل جيش في كيان»، فاذا تداعت معنويات هذا الجيش انهار الكيان. وكان هذا الانهيار ممكنا فيما لو استمرت الحرب، خصوصا ان الضحايا العسكريين من الاسرائيليين ربما يفوق ضحايا الشهداء من مقاتلي حزب الله. فكان ذلك بداية انهيار ارادة قوى العدوان، الامر الذي كان ينذر بكارثة خطيرة للمشروع الصهيوني، ومعه مشاريع واشنطن ولندن. هذه الحقائق جديدة في تاريخ الصراع العربي ـ الاسرائيلي، وقد أقضت مضاجع زعماء التحالف الشرير الذين هرعوا لاستصدار قرار مجلس الامن الذي دعا الى وقف اطلاق النار. وحتى بعد صدور القرار حاولت قوات الاحتلال تحقيق بعض الانجازات، بمحاولة محاصرة المقاومة في جنوب اللبناني، ولكنها فشلت، وسقط المزيد من الضحايا في صفوفها.

* كاتب وصحافي بحريني يقيم في لندن

إدخال المقاومة في ذاكرة الأمة

د. علي محمد فخرو

■ تصُّر كل الأمم على أن تُحل في ذاكرتها الجمعية أمجاد انتصاراتها وتضحياتها وبطولاتها حتى تبقى مصدر إلهام لأجيالها المتعاقبة ومصدر طاقة لتجديد حيويتّها وإخراجها من نكباتها التاريخية. في المقابل يحرص أعداد أية أمة على تشويه مايدخل في ذاكرتها من خلال بذر الشكوك والأكاذيب وأنصاف الحقائق حول تلك الأمجاد والانتصارات. من هنا يجب أن ندرك معنى ومغزى الحملات الفاحشة التي تقوم وستقوم بها الدوائر الصهيونية والأمريكية وحلفاؤهما ضدّ منجزات المقاومة الإسلامية في لبنان.

ستحاول تلك الدوائر استعمال المقارنات الكمية الخادعة فالدمار العمراني الذي لحق بلبنان هو أكثر بكثير مما لحق بالبنية التحتية الصهيونية في فلسطين المحتلة، وإذن سيكون استنتاج تلك الدوائر بأن كفةّ انتصارات الصهاينة هي الراجحة دون ذكر أن لدى الصهاينة أكثر من أربعمئة طائرة كانت تقصف ليل نهار لبنان في حين أن حركة المقاومة لم تكن تملك حتى طائرة واحدة. وستستعمل نفس المقارنات الكمية بالنسبة لعدد القتلى والجرحى والمصابين والنازحين عند كلا الجانبين دون أي ذكر للأسباب الموضوعية التي تجعل الفروق الكمية أمراً مؤكداً بل ومقبولاً.

ستحاول تلك الدوائر قراءة المقررات الدولية، من مثل قرارات مجلس الأمن، لتشكّك في مدى ما حقّقته المقاومة الإسلامية في المجالات السياسية دون ذكر إلى أن المؤسسات الدولية ليست إلاّ أدوات خاضعة بشكل شبه مطلق لأمريكا، وبالتالي فان نوع تلك القرارات الدولية لا دخل له بواقع ما جرى من معارك ملحمية خاضها أبطال «حزب الله» وحققّوا فيها أبهر وأعظم الانتصارات وبواقع الفوضى والعجز والنتائج الهزيلة التي مّيزت العدوان العسكري الصهيوني منذ بدايته حتى نهايته.

ومن جهة أخرى ستحاول بعض الدوائر العربية الرسمية وغير الرسمية، إنسجاماً مع تآمركها في السياسة والفكر ومع تلاقي مصالحها مع المصالح الامبريالية في واشنطن ولندن وغيرهما من العواصم، وعلى تشويه معاني انتصارات المقاومة الإسلامية في لبنان، إما بربطها بمنطق الطائفية أو بحدود القطرية أو بالاستسلام بهذه الدولة الإقليمية أو تلك، وبالتالي ستحاول منع دخول تلك المعاني في ذاكرة الأمة العربية والأمة الإسلامية الجمعية واعتبار كل ماحدث من بطولات وتضحيات ونتائج مبهرة وقلب لطاولة أمريكا والصهيونية والغالبية الساحقة من أنظمة الحكم العربية.. إعتبار ذلك حدثاً عابراً لن يتجذّر في أعماق المستقبل العربي والإسلامي والواقع أن أنواع المحاولات ستكون متنوعة وستستعمل الثقافة والدين والفكر للوصول إلى محو كل ما حدث من ذاكرة الأمة أو على الأقل تشويهه لإبطال مفعوله النضالي والنهضوي.

من هنا الأهمية القصوى لقيام جبهة مقاومة عريضة لإحباط ذلك المخطّط، جبهة تضمّ المفكرين والمحلّلين السياسيين لإحباط ذلك المخطط، جبهة تضمّ المفكرين والمحلّلين السياسيين والإعلاميين والفقهاء والاختصاصيين العسكريين، من أجل تقييم ما جرى في جنوب لبنان على الأخص، ولكن ضمن دراسة لكل حركات المقاومة العربية والإسلامية في العراق ولبنان وفلسطين وغيرهم، تقييماً موضوعياً واقعياً عادلاً تاريخياً وذلك من أجل أن لا تضيع التضحيات الجسام والانتصارات المبهرة الواعدة هباء. إن أرواح الشهداء الذين سقطوا في ساحات الدفاع عن شرف الأمة ومستقبلها ستسترخنا بأن نكون مع الأهداف العظيمة الربانية التي رفعوها في وجه الهمجية الأمريكية ـ الصهيونية وفي وجه عار الأمم المتحدة وإنقلاب الغرب على حداثته والتي رفعوها أيضاً من أجل تغيير الأوضاع البائسة التي تعيشها أمتهم على يد الاستبداد والفساد والتخلف.

منذ القرن العاشر وقوى من الخارج والداخل تحاول تشويه أو تفريغ ماتختزنه ذاكرة الأمة، أحياناً بجعله فوق التاريخ وأحياناً بجعله خارج التاريخ كما تحاول أن تفعله أمريكا والصهيونية ومساندوهما في الخارج والداخل مع المقاومة في لبنان وفلسطين والعراق. من أهم مهام الثقافة السياسية العربية الجديدة أن تقاوم ذلك التشويه اللئّيم وان تدخل المقاومة الإسلامية العربية في قلب تاريخ هذه الأمة، في أعمق أعماق وجدان وذاكرة شعوبها، فمعركة النهضة قادمة وستحتاج إلى وقود سماوي طاهر.

القدس العربي

يومية سياسية مستقلة

تطبع في لندن ونيويورك وفرانكفورت وتوزع في جميع انحاء العالم

الاشتراكات:

الاشتراك السنوي 450 جنيها استرلينيا في عموم بريطانيا و 750 دولارا امريكيا للوطن العربي وخارج بريطانيا بما في ذلك اجور البريد.

الناشر:
مؤسسة القدس العربي للنشر والاعلان

رئيس التحرير:
عبد الباري عطوان

المقر الرئيسي (لندن): 164/166 كنج ستريت، همرسميث، لندن دبليو 6 او كيو يو

هاتف: 8008 741 ـ 0208 (6 خطوط) ـ

فاكس: 8902 741 ـ 0208 أو 7637 748 ـ 0208

مكتب القاهرة: 43 أ شارع قصر النيل ـ الدور الاول ـ شقة رقم (2). هاتف/فاكس: 3901523(202)

مكتب المغرب: 80 شارع